سمات التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني من خلال تفسيره فتح القدير

أ. منصر عباس
جامعة الوادي. الجزائر

ملخص البحث:

يُجلي هذا البحث جانبا من اهتمام الإمام الشوكاني بالتفسير اللغوي وإعطائه حيزا كبيرا في حقل التفسير، كما يَظهر جليّا اهتمامه بمعاني المفردات حال الإفراد وحال التركيب وإعماله علم الاشتقاق لمعرفة أصل الاستعمال العربي للمفردة.

كما تميّز تفسيره اللغوي بعدة خصائص منها: قبول المعنى المشهور لغة وإبعاد الضعيف النادر – اعتماده على الأئمة الثقات العارفين باللغة – تقديمه التفسير النبوي الثابت على المعنى العربي – تقديمه الحقيقة الشرعية على الحقيقة اللغوية – ميله إلى الاختصار في ذكر التعليلات النحوية والتوجيهات الإعرابية.

ليخلص البحث أخيرا إلى انفراد الإمام الشوكاني بمنهج تفسيري لغوي جامع بين أصول علم التفسير وقواعد اللغة العربية.

The abstract:

This article clears up theone side ofImamAl-Shawqani's interest in lingual interpretation and how he gives it a great space in the field of Interpretation, as shown clearly his interest in the meanings of vocabulary in the case of singular and plural, he also uses the etymology to identify the original Arabic use of the word.

His lingual Interpretation is also characterized by several features: Firstly, the acceptance of the famous lingual meaning and the exclusion of the rare weak one, moreover, his reliance on the faithful Imams who know the language providing the fixed prophetic interpretation of the Arabic meaning, Besides he prefers the religious truth rather than the lingual one, having tendency to the abridgement for mentioning the grammatical justifications and analysis guidance.

Finally, we conclude the uniqueness of the Imam Shawkani with his lingual and interpretive approach that combines the principles of the interpretation Science and the rules of the Arabic language.

Keywords: Shawkani - lingual Interpretation - features of lingual Interpretation.

تمهيد:

تعددت طرائق المفسرين ومناهجهم في تناول المادة التفسيرية، بين معتمد على المرويات الأثرية، وآخر محتكم إلى علوم العربية، وصنف ثالث حول الجمع بين المنهجين، ومن هؤلاء الإمام

الشوكاني الذي يذكر في مقدمة تفسيره أنّ الباعث على كتابة هذا التفسير هو الدمج بين الطريقين والجمع بين المسلكين.

والإمام الشوكاني من أعلام القرن الثالث عشر الهجري، وتفسيره فتح القدير حوى فوائد ودرر من سبقه من علماء التفسير واللغة، فإذا كان هذا الأمر كذلك، فما هي سمات التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني؟، وما الخصائص التي ميّزت منهجه اللغوي؟.

وللإجابة عن هذه الإشكالية يحسن بنا تناول البحث في النقاط التالية:

- أولا: مدخل:
- ثانيا: منهجه العام في التفسير اللغوي:
- ثالثا: عناية الإمام الشوكاني بالجوانب اللغوية في التفسير.
- رابعا: خصائص التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني.

مع الحرص في كل جزئية من جزئيات هذا البحث على إيراد نماذج تطبيقية من تفسير الشوكاني.

- أولاً: مدخل للبحث.

ويندرج تحته ثلاثة نقاط: ترجمة موجزة للإمام الشوكاني – وصف عام لتفسيره فتح القدير – تعريف التفسير اللغوي.

1- ترجمة موجزة للشوكاني.

هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني[1] مولدا الصنعاني نشأة القحطاني نسبا، ولد رحمه الله سنة 1173هـ، ونشأ بصنعاء وطلب العلم على يد كبار مشايخها، وخلّف عديد المؤلفات في مختلف الفنون، ولعل من أهم مؤلفاته تفسيره المشهور المسمى " فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرايةمن علم التفسير"، وكانت وفاته بصنعاء سنة 1250هـ[2].

2- وصف عام لتفسيره فتح القدير.

استغرق الإمام الشوكاني في تأليف تفسيره سبع سنوات عاش فيها يتفيأ ظلال آيات الله تعالى دارسا متمعّنا متدبّرا، جامعا بين التفسير بالمأثور والتفسير اللغوي.

لقد قدّم الإمام الشوكاني منهجا جامعا شاملا فريدا في بابه فقد حوى جواهر ابن جرير وعمق القرطبي وايجاز ابن عطية وتدقيق ابن كثير ودرر السيوطي، حيث يقول الدكتور عبد الرحمن عميرة في مقدمة تحقيقه لفتح القدير: ... فتفسير الشوكاني وحيد من حيث جمعه وترتيبه وحسن أدائه واستيعابه لأنواع علوم القرآن وجمعه بين الدراية اللغوية والرواية الأثرية[3].

3- تعريف التفسير اللغوي كمركب إضافي (مصطلح).

على أنّ هذا المصطلح لم يكن دارجا في عرف علماء التفسير القدامى، ومما تجدر الإشارة إليه

أنّ الإمام الشوكاني كذلك لم يخرج عن هذا الإلف، ولكن كان يعبّر بتراكيب تدل على معنى هذا المصطلح مثل قوله: " هذا تفسير على مقتضى لغة العرب أو قوله: هذا تفسير ناظر إلى اللغة " وغيرها من العبارات التي تدل على إعمال الإمام الشوكاني للتفسير اللغوي في الحقل التفسيري حتى وإن لم يسمّه بهذا اللقب.

ويعرف الدكتور مساعد الطيار هذا المصطلح بقوله: " هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب والاستشهاد لذلك بما وصلنا من أشعارهم وأساليبهم وأوجه خطاباتهم التي نزل بها القرآن"[4].

ثانيا: منهجه العام في التفسير اللغوي.

إنَّ القارئ لتفسير الشوكاني والذي يمعن النظر فيه يلحظ الشوكاني يعتمد طريقة معيّنة في تفسير الكلمات القرآنية ويتّبع خطوات خاصة في تناوله للتفسير اللغوي ، لذلك وبحسب نظري أرىمنهجه العام في التفسير اللغوي لا يخرج عن هذه النقاط ، وقد يقدّم فيها وقد يؤخر بحسب المقام وما يقتضيه تفسير الآية .

1 . يبدأ بإعراب الكلمات والجمل .

2 . شرح الكلمة الغريبة معتمدا على أساطين اللغة والتفسير .

3 . اشتقاقها وأصل استعمالها في الوضع العربي، مستشهدا على ذلك من فصيح شعر العرب.

4 . ذكر الأقوال في معنى الكلمة ونسبتها إلى قائليها ، وقد يستعمل صيغة التمريض (قيل) .

5 . توجيه معنى الآية بحسب كل قول في معنى الكلمات الغريبة .

6 . ذكر القراءات القرآنية المتواترة والشاذة، وتوجيه المعنى بحسب كل قراءة.

وقد يضيف إلى هذا بعض مباحث علوم القرآن المتعلّقة باللغة والتي لها صلة بمعاني الكلمات القرآنية كعلم الوقف والابتداء والمجاز والرسم العثماني ودفع الاختلاف والتناقض وغيرها.

مثال على منهج الشوكاني العام في التفسير اللغوي.

يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ وما ينظرُ هؤلاءِ إلاّ صيحةً واحدةً ما لها من فواقٍ ﴾[ص : 15] : " وجملة (مالها من فواق) في محل نصب صفة لصيحة ، قال الزجاج : فَواق وفُواق بفتح الفاء وضمّها أي مالها من رجوع ، والفَواق ما بين حلبتي الناقة ، وهو مشتق من الرجوع أيضا ؛ لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، وأفاق من مرضه أي رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ومقاتل : إنّ الفواق : الرجوع.... وقال السُّدي : ما لها من إفاقة ، وقيل : مالها من مردٍّ ، وقال الجوهري : ما لها من نظرة وراحة وإفاقة .ومعنى الآية : أنّ تلك الصيحة هي ميعادُ عذابهم ، فإذا جاءت لم ترجع ولا تردُّ عنهم ولا تصرف منهم ولا تتوقّف مقدار فواق ناقة ، وهي ما بين حلبتي الحالب لها ومنه قول الأعشى :

حتى إذا فيقة في ضرعها اجتمعت جاءت لتُرضع شق النفس لو رضعا[5].

والفَيْقَةُ : اسم اللّبن الذي يجتمع بين الحلبتين وجمعها فِيَقٌ وأفْواقٌ . قرأ حمزه والكسائي (ما

لها من فُواق) بضم الفاء ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الفراء وأبو عبيدة : الفَواق بفتح الفاء : الراحة ، أي لا يفيقون فيها كما يفيق المريض والمغشيّ عليه ، وبالضم : الانتظار "[6].

ثالثا: عناية الإمام الشوكاني بالجوانب اللغوية في التفسير.

تعد علوم اللغة العربية من العلوم التي أخذ منها الشوكاني بالنّصيب الأوفر حيث ذكر عن نفسه في البدر الطالع أنه قرأ متون اللغة بمختلف أنواعها وكان كثير الاشتغال بمطالعة كتب الأدب[7].

قال الدكتور بن عيسى الجزائري : " وتظهر براعة الشوكاني ورسوخ قدمه في علوم اللغة من خلال مؤلفاته ورسائله الكثيرة وفي طرائق عرضه للموضوعات واستدلالاته على المسائل ، والرّد على الخصوم وإيثاره الاجتهاد ونبذه التقليد ... وأصبحت مؤلفاته متداولة عند أهل المشرق والمغرب علىالسواء ... ولعل من أهم مؤلفاته اللغوية أو تلك التي لها علاقة مباشرة بعلوم اللغة العربية تفسيره "فتح القدير" الذي أمضى سبع سنوات في تأليفه ، قاصدا في منهجه الجمع بين الرواية والدراية[8].

إن القارئ لتفسير الشوكاني والمحص له تمحيصا علميا لغويا ، يجد فيه صناعة تفسيرية لغوية فريدة ، ومنهجا لغويا متكاملا، وذلك بالنظر إلى :

الفرع الأول : عنايته بشرح معاني الكلمات القرآنية الغريبة.

فالكلمات القرآنية أسماء وأفعالا وحروفا حضيت باهتمام الإمام الشوكاني ، وكمثال على ذلك شرحه لمعنى حرف الواو عند قوله تعالى ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ [الكهف :22]قال رحمه الله : "... قيل : وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأولتين ، قال أبو علي الفارسي : قوله ﴿رابعهم كلبهم﴾و ﴿سادسهم كلبهم﴾ جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله﴿ثلاثة﴾والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدي عن أبي علي ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج في دخول الواو في﴿وثامنهم ﴾وإخراجها من الأول ، وقيل : هي مزيدة للتوكيد ، وقيل : إنّها واو الثمانية وإنّ ذكره متداول على ألسنة العرب إذا وصلوا إلى ثمانية كما في قوله ﴿وفتحت أبوابها﴾[الزمر :73]وقوله ﴿ثيبات وأبكارا ﴾[التحريم : 5] "[9].

الفرع الثاني : عنايته بمعاني التراكيب.

وهذا ظاهر لمن يقرأ فتح القدير قراءة تفسيرية متمعّنة ، يقول عند قوله تعالى ﴿وضُربت عليهم المسكنة ﴾ [آل عمران : 112] : " قد تقدم في البقرة معنى هذا التركيب ، والمعنى : صارت الذلة محيطة بهم في كل حال وعلى كل تقدير في أي مكان وجدوا "[10]. وقال عند قوله تعالى ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهوْن عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيَهم إنّ المنافقين هم الفاسقون﴾[التوبة : 67] : "... وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق "[11]. وقال عند قوله تعالى ﴿إنّ المتقين في جنات وعيون ﴾ [الحجر : 45] :"... والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنّة وعين "[12].

الفرع الثالث : عنايته بعلم الاشتقاق.

وقد أتحف الإمام الشوكاني المكتبة الإسلامية بمؤلّفه اللّطيف في هذا العلم وهو "نزهة الأحداق في علم الاشتقاق" ، وقد نشرته مجلة الأحمدية الإماراتية في عددها الثامن سنة 2001م بتحقيق الدكتور بن عيسى باطاهر الجزائري[13].

ويظهر اهتمام الشوكاني بعلم الاشتقاق ، إذا علمنا مدى أهمية الرجوع إلى أصل معنى الكلمة في الوضع العربي لمعرفة معناها ، والإمام الشوكاني مكثر من توظيف علم الاشتقاق في تفسيره ، فتكاد لا تخلو آية إلا ويشير إلى اشتقاق كلمة فيها ويبين أصلها في الوضع العربي ، وفيما يلي نماذج من ذلك :

فعند قوله تعالى ﴿ لا يسألون الناس إلحافا﴾ [البقرة : 273] قال رحمه الله : " والإلحاف : الإلحاح في المسألة ، وهو مشتق من اللّحاف وسمّي بذلك ؛ لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللّحاف على التغطية "[14]. وعند قوله تعالى ﴿ يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتاب﴾ [الأنبياء : 104] قال رحمه الله : " والسّجل : الصحيفة ، وقيل : الصّك وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة ، وأصلها من السّجل وهو الدّلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، ومنه قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدّلو إلى عقد الكرب[15].

وعند قوله تعالى ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمرًا ﴾ [الزمر : 71] قال رحمه الله :"... قال أبو عبيدة والأخفش : زمرا : جماعات متفرّقة بعضها إثر بعض ، ومنه قول الشاعر :

وترى الناس إلى أبوابه زمرا تنتابه بعد زمر[16].

واشتقاقه من الزمر وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو منه "[17].

وقال في أواخر سورة الرحمن ﴿ مُتّكئين على رَفْرفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن : 76] قال رحمه الله : "... واشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر ، وهي تحريك جناحيه في الهواء "[18]، وفي المعارج عند قوله تعالى ﴿ كلاَّ إنّها لظى﴾ [المعارج : 15] قال رحمه الله : "... ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التّلظي في النّار وهو التّلهب ، وقيل : أصله لظظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظائين ألفا "[19].

الفرع الرابع: تنوّع مصادره اللغوية.

ويظهر اهتمام الشوكاني بالجوانب اللغوية من خلال تنوع مصادره التي ينقل عنها، يقول الدكتور العمري : " وقد اعتمد الشوكاني في تفسيره على مصادر متنوعة ... ويظهر ذلك في استخدامه الواسع للمصادر اللغوية من المعاجم والشروح ، فكان كثير الاستشهاد "بمعاني القرآن" للزجاج و "الجمهرة" لابن دريد "تهذيب اللغة" للأزهري و "الصحاح" للجوهري و "شمس العلوم" لنشوان الحميري ، وغير ذلك من كتب اللغة ومعاجمها "[20]. وقال الدكتور محمد حسين الذهبي : "... وكان يحتكم إلى

اللغة كثيرا وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبي عبيدة والفراء "[21].

ونظرا لخلفيته اللغوية المتينة جاءت المصادر التي اعتمدها متنوعة ، فهو يعتمد على الكتب المؤلفة في الغريب كتفسير ابن قتيبة والمفردات للراغب ، ويعتمد على المعاجم اللغوية بمختلف مدارسها ومناهجها كالعين والصّحاح والتهذيب واللّسان والقاموس ، إضافة إلى التفاسير التي تُعنى بالجوانب اللغوية كتفسير الطّبري وتفسير الماوردي وتفسير الكشاف وتفسير القرطبي... الخ

فمن هنا جاء تنوّع مصادر الشوكاني اللغوية ، فهو يفسّر الكلمة الغريبة وينوّع في المصادر المعتمدة في شرحها ، ويلخّص معناها تلخيصا فريدا.

فعند قوله تعالى ﴿ فجاسوا خلال الدِّيار ﴾ [الإسراء : 5] قال رحمه الله : " أي عاثوا وتردّدوا يقال : جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن جرير... وقال الزجاج : معناه طافوا خلال الدّيار ، هل بقي أحد لم يقتلوه ؟ ، قال : والجوس : طلب الشيء باستقصاء . قال الجوهري : الجوس : مصدر قولك جاسوا خلال الدّيار ، أي تخلّلوها كما يجوس الرجللأخبار ، أي يطلبها وكذا قال أبو عبيدة ، وقال ابن جرير : معنى جاسوا : طافوا بين الدّيار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفراء : قتلهم بين بيوتهم وأنشد لحسّان:

ومنّا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الأعداء عرض العساكر[22].

وقال قطرب : معناه : نزلوا وأنشد قول الشاعر :

فجسنا ديارهم عنوة وأُبنا بساداتهم موثّقينا[23].

... وقال أبو زيد: الحوس والجوس والعوس والهوس : الطوف بالليل ، وقيل : الطوف بالليل هو الجَوَسان محرّكا كذا قال أبو عبيدة "[24].

وعند قوله تعالى ﴿لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا ﴾ [الفرقان :73] قال رحمه الله : "... قال ابن قتيبة : المعنى لم يتغافلوا عنها كأنّهم صمّ لم يسمعوها ، وعمي لم يبصروها . قال ابن جرير : ليس ثَمَّ خرور ، بل كما يقال : قعد يبكي وإن كان غير قاعد . قال ابن عطية:كأنَّ المستمع للذّكر قائم ، فإذا أعرض عنه كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام ... قال الفراء : أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأنْ لم يسمعوا . قال في الكشاف : ليس بنفي للخرور وإنّما هو إثبات له ونفيّ للصمّ والعمى "[25].

فأنت ترى تنويع الإمام الشوكاني في مصادره المختلفة في منطلقاتها ومناهجها وطرائقها ، ومن هنا يأتي ثراء تفسير الشوكاني من الناحية اللغوية ، فدراسة سمات التفسير اللغوي عنده تسلط الضوء على هذه الزاوية من التنوع والثراء.

رابعا: خصائص التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني:

لقد رسم الإمام الشوكاني لنفسه منهجا في قبول معاني الكلمات الغريبة ، فمعروف أنّ اللغة وصلت إلينا رواية ونقلها الأثْبات والعارفون بها واحدا عن واحد حتى دوّنت في بطون الكتب ، والإمام

الشوكاني متشدّدٌ في هذا الباب ، محترز في شروح الكلمات القرآنية الغريبة ، فلامفرّ إلى قول عنده إلا بدليل ، ولا مفزع لرأي إلا بحجة ناصعة ، إمَّا من فصيح كلام العرب أو من نقلٍ عن الأثْبات والأئمة الثقات المجمع على إمامتهم وجلالتهم في هذا الشأْن.

لذلك ومن خلال تتبّع واستقراء ميزات التفسير اللغوي عند الشوكاني، مكّننا ذلك من حصر هذه الخصائص في النقاط التالية:

الخاصية الأولى: قبول المعنى المشهور المعروف الثابت لغةً وترك ما سواه من المعاني.

وأُدرج في هذه المسألة مثالين لتوضيح تثبت الشوكاني في قبول معاني الكلمات القرآنية.

ففي تفسير قوله تعالى ﴿وزُروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيمٌ ﴾ [الشعراء : 148] قال الشوكاني : " والهضيمُ : النَضيج اللّين اللّطيف ... وحكى الماوردي في معنى هضيم اثنى عشر قولاً أحسنها وأوفقها للغة ما ذكرناه "[26].

وفي تفسير قوله تعالى ﴿واترُكِ البحرَ رَهْوًا﴾ [الدخان : 24] قال رحمه الله : " أي ساكنا ، يقال : رها يرهو رهوا : إذا سكن لا يتحرّك ، قال الجوهري: يقال : افعل ذلك رهوا أي ساكنا على هيئتك ، وعيشُ راهٍ : أي ساكن ، ورها البحر : سكن ، كذا قال الهروي وغيره وهو المعروف في اللغة ومنه قول الشاعر :

والخيل تمرح رهوا في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البردِ[27].

أي والخيل تمرح في أعنتها ساكنة "[28].

الخاصية الثانية : اعتماده على الأئمة الأثبات العارفين باللّغة.

نقتصر لتوضيح ذلك على مثالين:

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ فجعلناه هباءً منثورًا ﴾ [الفرقان : 23] قال رحمه الله : " ... والهباءُ : واحدة هباءة والجمع أهباء ، قال النّضر بن شُميل: الهباء : التراب الذي تطيّره الرّيح كأنه دخان ، وقال الزجاج: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار وكذا قال الأزهريُّ... وقيل : إنّ الهباء ما أذرته الرّياح من يابس أوراق الشجر ، وقيل : هو الماء المهراق ، وقيل :الرّماد ، والأول هو الذي ثبت في لغة العرب ونقله العارفون بها "[29].وفي تفسير قوله تعالى ﴿كلاَّ إنّ كتابَ الفجّارِ لفي سجّينٍ ﴾ [المطففين :7] قال رحمه الله : " وقد اختلفوا في نون سجّين ، فقيل : هي أصلية واشتقاقه من السّجن وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمّير وسكّير وفسّيق من الخمر والسُكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرّد والزجاج ، قال الواحديُّ: وهذا ضعيف ؛ لأنّ العرب ما كانت تعرف سجّينا ، ويجاب عنه : بأنّ رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة وتدل على أنّه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل:

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجّينا[30].

فأنت ترى الإمام الشوكاني رجع إلى أهل الاختصاص والْتفت إلى أهل الصّنعة من أمثلة أبو

عبيدة والمبرّد والزجاج ، الأئمة الثقات والعارفون الأثبات الذين لا يختلف اثنان في إمامتهم وسبقهم الأقران في علوم اللغة بأنواعها ، وإنما لم يلتفت الشوكاني لقول الإمام الواحدي ولم يرفع له رأسا حين ادّعى أنّ العرب لا تعرف سجّينا وهذا لمخالفته المشهور المرويّ عن العرب المنقول إلينا من بطون الأودية ومنابت الشجر لذلك ختم الإمام الشوكاني بحثه في نون سجّين بالاستشهاد ببيت ابن مقبل الشاعر الجاهلي المخضرم المحتجّ بشعره.

الخاصية الثالثة: تقديمه التفسير النبوي إنْ ثبت على المعنى العربي.

يقول الشوكاني في مقدمة تفسيره : " ... فإنّ ما كان من التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ ، كان المصير إليه متعيّنا وتقديمه متحتّما غير أنّ الذي صحّ عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنّسبة إلى جميع القرآن ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان ... "[31].

ففي تفسير قوله تعالى ﴿وما كان الله ليُضيعَ إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] قال الشوكاني : " قال القرطبي: اتفق العلماء على أنّها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس ، ثم قال : فسمّى الصلاة إيمانا لاجتماعها على نيّة وقول وعمل ، وقيل : المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة ، وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم ، والأول يتعيّن القول به والمصير إليه لما سيأتي من تفسيره ﷺ للآية بذلك[32] ".

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآنَ العظيمِ ﴾ [الحجر : 87] قال الشوكاني : " ... اختلف أهل العلم في السبع المثاني ما هي ؟ فقال جمهور المفسّرين : إنّها الفاتحة، قال الواحدي : وأكثر المفسّرين على أنّها فاتحة الكتاب ... وقد رُويَ ذلك من قول رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه فتعيّن المصير إليه، ثم قال في خاتمة بحثه هذا بعدما أخرج حديث أبي هريرة وفيه قال رسول الله ﷺ ﴿ أمّ الكتاب هي السّبع المثاني والقرآن العظيم ﴾[33]قال : " فوجب بهذا المصير إلى القول بأنّها فاتحة الكتاب "[34].

ولقد أحصيت موضعين صريحين من فتح القدير يستخلص منهما تقديم الإمام الشوكاني للتفسير النبوي الثابت على المعنى العربي الذي تقتضيه اللغة .

فأما **الموضع الأول** : عند قوله تعالى ﴿إنّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليمٌ ﴾ [التوبة : 144] قال الشوكاني : " أخرج ابن جرير وغيره عن عبد الله بن شداد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأواهُ؟ قال ﷺ: ﴿ الخاشع المتضرّع الدّعاءُ ﴾[35]ثم قال الشوكاني : وهذا إنْ ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأوّاه "[36].

وأمّا **الموضع الثاني** : قوله تعالى ﴿إنّا أعطيناكَ الكوْثرَ ﴾ [الكوثر: 1] قال رحمه الله : "... والكوثر : فوْعل من الكثرة ، وصف به للمبالغة في الكثرة مثل النّوْفل من النّفل والجوْهر من الجهر ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر : كوثرا ، ومنه قول الشاعر :

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا[37].

... وذهب أكثر أهل العلم كما حكاه الواحدي إلى أنّ الكوثر نهر في الجنّة ، ثم قال رحمه الله بعد عرضه لمجموعة من الآثار فيها التّصريح بأنّ الكوثر نهر في الجنّة قال : فهذه الأحاديث تدل على أنّ الكوثر هو النّهر الذي في الجنّة ، فتعيّن المصير إليها وعدم التّعويل على غيرها ، وإنْ كان معنى الكوثر هو الخير الكثير في لغة العرب ، فمن فسّره بما هو أعمّ ممّا ثبت عن النبي ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي "[38]. ثم قال بعد تخريجه لرواية ابن عباس التي مفادها أنّ الكوثر هو الخير الذي أعطاه اللهإيّاه[39]، قال : " وهذا التفسير من حبْر الأمة ابن عباس ﷺ ناظر إلى المعنى اللّغوي كما عرّفناك ، ولكن رسول الله ﷺ قد فسّره فيما صحّ عنه أنّه النّهر الذي في الجنّة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل "[40].

الخاصية الرابعة: تقديمه الحقيقة الشرعية إنْ ثبتت على الحقيقة اللّغوية.

اعلم أنّ الإمام الشوكاني رحمه الله اهتم بالمعاني اللغوية للكلمات القرآنية وأضاف إليها المعانيالشرعية ، فإذا ثبت أنّ الشرع نقل معنى كلمة من معناها اللّغوي إلى معنى آخر اصطلاحي أورده الشوكاني وقدّمه على المعنى اللّغوي.

وهذا كالاستسقاء في قوله تعالى ﴿وإذِ استسقى موسى لقومهِ﴾ [البقرة : 60] قال رحمه الله : " والاستسقاء معناه في اللغة : طلب السقيا ، وفي الشرع : ما ثبت عن النبي ﷺ في صفته من الصلاة والدّعاء "[41].

وكالجزية في قوله تعالى ﴿حتى يُعطوا الجِزْيةَ عن يدٍ وهم صاغرونَ﴾ [التوبة : 29] قال : " الجزية : وزنها فعلة من جزى يجزي : إذا كافأ عما أُسديَ إليه ، فكأنما أُعطوها جزاء عما مُنحوا من الأمن ، وقيل : سمّيت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذّمة أنْ يجزوه : أي يقضوه ، وهي في الشرع : ما يعطيه المعاهد على عهده"[42].

والإمام الشوكاني يقدّم الحقيقة الشرعية إنْ ثبتت على الحقيقة اللّغوية ما لم ترد قرينة تدل على خلاف ذلك ، فإنْ وردت القرينة قدّم الحقيقة اللّغوية على الحقيقة الشرعية.

ولقد أحصيت سبعة مواضع من فتح القدير قدّم الشوكاني فيها المعنى الشرعي على المعنى العربي، في حين قدّم المعنى العربي على المعنى الشرعي في موضع واحد وهذا تفصيل ذلك :

الفرع الأول : المواضع التي قدّم فيها المعنى الشرعي[43].

أولا : قال الشوكاني في معرض كلامه عن معنى الحمد والفرق بينه وبين الشكر وبعد نقله لكلام ابن جرير وتعقّب ابن كثير له ، قال : " ولا يخفى أنّ المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين ، فإنّ ذلك لا يرد على ابن جرير ولا تقوم به الحجة ، هذا إذا لم تثبت للحمد حقيقة شرعية فإذا ثبتت وجب تقديمها "[44].

ثانيا : وقال في تفسير قوله تعالى﴿هُدًى للمُتّقينَ﴾[البقرة : 2] وبعد نقله لكلام الزمخشري حول معنى المتّقي بقوله : (وهو في الشريعة : الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحقّ به العقوبة من فعل

أو ترك) ثم قال الشوكاني بعد إيراده لحديث عطية السّعدي قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ لا يبلغ العبد أنْ يكون من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به حذرا ممّا به بأس ﴾[45] قال :" فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب ، ويكون هذا معنًى شرعيا للمتّقي أخصُّ من المعنى الذي ذكره صاحب الكشاف زاعما أنّه المعنى الشرعي "[46].

الفرع الثاني : الموضع الذي قدّم فيه المعنى اللّغوي.

وهو قوله تعالى ﴿أُجيبُ دعوةَ الداعي إذا دَعانِ﴾ [البقرة : 186] حيث قال رحمه الله : " ومعنى الإجابة : هو معنى ما في قوله تعالى: ﴿أُدعوني أستجِبْ لكم ﴾ [غافر : 60] وقيل : معناه أقبل عبادة من عبدني بالدّعاء ، لما ثبت عنه ﷺ من أنّه قال ﴿ الدّعاء هو العبادة ﴾[47]... والظاهر أنّ الإجابة هنا باقية على معناها اللّغوي ؛ وكوْنُ الدّعاء هو العبادة لا يستلزم أنّ الإجابة هي القبول للدّعاء ، أي جعله عبادة متقبّلة ، فالإجابة هي أمر آخر غير قبول هذه العبادة . والمراد : أنّه سبحانه يجيب بما شاء وكيف ما شاء فقد يحصل المطلوب قريبا وقد يحصل بعيدا ، وقد يدفع عن الدّاعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه "[48].

هذا الكلام يصدُق إذا ثبتت الحقيقة الشرعية ، أمّا إذا لم تثبت قدّم الشوكاني المعنى العربي على المعنى العرفي.

الفرع الثالث : المواضع التي قدّم فيها المعنى العربي على المعنى العُرفي[49].

وهما موضعان :

أولا : قوله تعالى ﴿ وقلنا يا آدمُ اسْكُنْ أنت وزوجُك الجنّةَ ﴾ [البقرة : 35] قال رحمه الله : " أي اتخذ الجنّة مسكنا وهو محل السُكون ، وأمّا ما قاله بعض المفسّرين من أنّ في قوله (اسكن) تنبيها على الخروج ؛ لأنّ السُكنى لا تكون مِلكا ، وأُخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أنّ من أسْكن رجلا منزلا له فإنّه لا يملكه بذلك ، وأنّ له أنْ يُخرجه منه ، فهو معنى عرفي ، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم تثبت في اللّفظ حقيقة شرعية "[50].

ثانيا : قوله تعالى ﴿والجارِ ذي القُربى والجارِ الجُنُبِ ﴾ [النّساء : 36] قال رحمه الله : " ... وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصدق عليه مسمّى الجوار ويُثبت لصاحبه الحق ، فروي عن الأوزاعي والحسن أنّه إلى حدّ أربعين دارا من كلّ ناحية ... وقيل : من سمع إقامة الصّلاة ، وقيل : إذا جمعتهما محلّة ، وقيل :من سمع النّداء . والأولى أنْ يُرجع في معنى الجوار إلى الشرع ، فإنْ وُجد فيه ما يقتضي بيانه أنْ يكون جارا إلى حدّ كذا من الدُّور أو من مسافة الأرض ، كان العمل عليه متعيّنا ، وإنْ لم يوجد رُجع إلى معناه لُغة أو عُرفا ، ولم يأتي في الشرع ما يفيد أنّ الجار هو الذي بينه وبين جاره مقدار كذا ، ولا ورد في لغة العرب أيضا ما يفيد ذلك ، بل المراد بالجار في اللّغة : هو المجاور ، ويطلق على معان كما في القاموس : والجار : المجاور ، والذي أجرته من أنْ يظلم ، والمجير والمستجير والشريك في التّجارة ، وزوج المرأة وهي جارته ، وفرج المرأة وما قرُب من المنازل ، والإست كالجارة ،

والقاسم والحليف والناصر ... اه ، وقد ورد في القرآن ما يدل على أنّ المُساكنة في المدينة مُجاورة قال تعالى :﴿لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنُغْرِينَّكَ بهم ثمّ لا يُجاوِرُونك فيها إلاّ قليلاً﴾ [الأحزاب : 60] فجعل اجتماعهم في المدينة جوارا ، وأما الأعراف في مُسمّى الجوار فهي تختلف باختلاف أهلها ، ولا يصح حمل القرآن على أعراف مُتعارفة واصطلاحات مُتواضَعة "[51].

الخاصية الخامسة: موقف الإمام الشوكاني من التوجيهات النحوية في التفسير.

لقد انتقد الإمام الشوكاني أبا حيان الأندلسي من حيث عنايته بالأوجه الإعرابية حتّى خرج عن الأهم في تفسير الآية ، وانتقد تعليلاته النّحوية التي لا تستحقّ كل هذا[52].

لذلك ومن خلال ما جمعت في هذه النّقطة من تفسير الشوكاني ؛ ألفيتُ الشوكاني يميل إلى الاختصار ، فهو لا يطيل بالتّعرّض لمعاني الحروف وأسماء الأفعال وذكر الأوجه النّحوية والتّعليلات الإعرابية ، وإيراد إشكالات النّحاة على اختلاف مدارسهم ، بل تراه يكتفي بالعزو والإحالة إلى مضانّها من كتب النّحو ، ويُشير لها إشارات ولا يحشو تفسيره بآراء النّحاة المتشعّبةوإنّما يذكر الوجه النّحوي الظاهر والرّاجح ، لذلك تراه غالبا ما يُحيل إلى كتب النّحاة ومُصنّفات علم الإعراب .

ففي قوله تعالى ﴿هيهات هيهات لما توعدون ﴾ [المؤمنون : 36] قال رحمه الله : " أي بُعد ما توعدون ، أو بعيدٌ ما توعدون ، والتكرير للتّأكيد . قال ابن الأنباري: وفي هيهات عشرُ لغات ثم سردها وهي مُبيّنة في علم النّحو وقد قُرئ ببعضها "[53]، وعند قوله تعالى ﴿ هاؤمُ اقْرأُوا كتابيهْ ﴾ [الحاقة : 19] قال رحمه الله : " ... والذي صرّح به النّحاة : أنها بمعنى خُذ ، يقال : ها بمعنى خُذ ، وهاؤما بمعنى خُذا ، وهاؤمُ بمعنى خُذوا ، فهي اسم فعل وقد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف في علم الإعراب "[54] . وقال في قوله تعالى ﴿فمهّلِ الكافرينَ أمهلهم رُوُيدًا ﴾ [الطارق : 17] : " قال أبو عبيدة : والرّوَيْدُ في كلام العرب تصغير الرّود وأنشد :

كأنها ثمل تمشي على رُود.

أي مهل ، وقيل : تصغير أرواد مصدر رود تصغير ترخيم ، ويأتي اسم فعل نحو : رُوَيْدُ زيد أي أمهله ، ويأتي حالا نحو : سار القوم رُوَيْدا أي مُتمهّلين ، ذكر معنى هذا الجوهري والبحث مُستوفًى في علم الإعراب "[55].

خاتمة:

وبعد هذا العرض حول سمات التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني نخلص إلى جملة من النتائج:

– تبرز عناية الإمام الشوكاني بالجوانب اللغوية من خلال حرصه على بيان معاني المفردات ومعاني التراكيب.

– ما يميّز التفسير اللغوي عند الشوكاني قيامه على التثبّت في قبول معاني الكلمات القرآنية، وإعمال المعاني المستعملة والمستفيضة وترك المعاني الضعيفة والنادرة.

– من خصائص التفسير اللغوي عند الإمام الشوكاني تقديمه التفسير النبوي إن ثبت على المعنى العربي، وتقديمه المعنى الشرعي على المعنى العربي، وإلاّ قدّم المعاني العربية على المعاني الحادثة بعد زمن الاحتجاج.

الهوامش:

[1] نسبة إلى شوكان، وهي قرية من ناحية ذمار باليمن. انظر معجم البلدان: ياقوت الحموي. 423/3.

[2] هذه ترجمة موجزة تقتضيها من هذه الأعمال الأكاديمية ينظر المصادر المعتمدة في الترجمة: البدر الطالع: للشوكاني 106/2، التاج المكلل: لصديق خان 410، الشوكاني مفسّرا: لمحمد حسن الغماري 60.

[3] من مقدمة تحقيق فتح القدير: عبد الرحمن عميرة، ط:3 ، دار الوفاء، القاهرة، 1426هـ 2005م.1/ 46-49.

[4] التفسير اللغوي للقرآن الكريم: مساعد الطيار، ط:1، دار ابن الجوزي، الرياض، 1422هـ 38-39 .

[5] ديوان الأعشى الكبير، د ت، ط:1، دار الباز، مكة المكرمة، 1987م، 104 .

[6] فتح القدير: 4/ 558 .

[7] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: الشوكاني د ت،ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، 2/ 106 .

[8] مجلّة الأحمدية : العدد الثامن ، [دبي ، يوليو- تموز ، 2001م]، 265 .

[9] فتح القدير: 3/ 385 .

[10] المصدر نفسه : 1/ 609 .

[11] المصدر نفسه : 3/ 183 .

[12] المصدر نفسه : 3/ 183 .

[13] قال الدكتور بن عيسى : " سلك الشوكاني في رسالة الاشتقاق مسلكا واضحا في جمع مادة هذا العلم ، فذكر أهمية علم الاشتقاق وبيّن مفهومه في اللغة والاصطلاح ثم ذكر أقسامه ، وقد اعتمد في منهجه اعتمادا شبه كليا على الإمام ابن جني من خلال كتابه الخصائص . مجلة الأحمدية : 271 .

[14] فتح القدير: 1/ 496 .

[15] الشعر والشعراء: ابن قتيبة، 89، وانظر المعجم المفصل : 1/ 417.

[16] البيت بلا نسبة في المعجم المفصّل : 3/ 305 .

[17] فتح القدير: 4/ 625 .

[18] المصدر نفسه : 5/ 190 .

[19] المصدر نفسه : 5/ 386 .

[20] الإمام الشوكاني رائد عصره :حسين بن عبد الله العمري،ط:1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1408هـ، 369 .

[21] التفسير والمفسّرون : لحسين الذهبي، ط:2، دد ، 1396هـ ، 2/ 288 .

[22] ديوان حسّان بن ثابت، دط، دار بيروت للطباعة، 1978، 67.

[23] البيت بلا نسبة، انظر تفسير القرطبي : 216/10، وانظر النكت والعيون:408/2 .

[24] فتح القدير: 3/ 290 .

[25] المصدر نفسه : 4/ 119 .

[26] المصدر نفسه : 4/ 148 .

[27] البيت للنابغة كما في اللّسان (غرب) 1/ 637، وانظر المعجم المفصّل 385/2 .

[28] فتح القدير: 4/ 749 .

[29]المصدر نفسه : 4/ 94 .

[30]الشعر والشعراء : لابن قتيبة 344.

[31]المصدر نفسه : 1/ 70 .

[32]وهو حديث أبي هريرة"مات على القبلة قبل أنْ تُحوّل رجال" وقد رواه البخاري (ك:الصلاة، ب:الصلاة من الإيمان)1 /71 وجماعة .

[33]رواه البخاري (ك: التفسير ، ب: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾) 303/14 وجماعة.

[34]فتح القدير : 3/ 195 .

[35]أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (10877) باب : قوله ﴿إنّ إبراهيم لأوّاهٌ حليمٌ ﴾، 38/5 .

[36]فتح القدير : 2/ 582

[37]عجز بيت صدره: أبوْ أنْ يُبيحوا جارهم لعدوّهم ، وهو لحسّان بن نُشْبة كما في اللّسان (كثر) 5/ 131.

[38]فتح القدير : 5/ 678 .

[39]رواه البخاري كتاب : التفسير، باب: قوله ﴿إنّا أعطيناك الكوْثرَ ﴾ (4584) 345/15.

[40]فتح القدير : 5/ 679 .

[41]المصدر نفسه : 1/ 200 .

[42]المصدر نفسه : 2/ 502 .

[43]توخيا للاختصار سأكتفي بذكر المثالين أعلاه وباقي المواضع ينظر فتح القدير: 1/490- 444/2 – 295/4 – 115/5 – 234/5.

[44]المصدر نفسه : 1/ 83 .

[45]أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عطية السّعدي ﷺ 5/ 113.

[46]فتح القدير : 1/ 109 .

[47]أخرجه أبو داود من حديث النعمان بن بشير ﷺ(1264) ب:الدعاء،278/4، وجماعة.

[48]فتح القدير : 1/ 337 .

[49]ومقصود الشوكاني من المعنى العرفي هو الاصطلاح الحادث ، لا المعنى المستند إلى عُرف التنزيل الذي هو مقدم عند علماء الأصول على المعنى العربي، إذ يقول الإمام الشنقيطي رحمه الله: " ... اعلم أنّ التحقيق : حمل اللفظ على الحقيقة الشرعية ثمّ العرفية ثم اللّغوية ، ثم المجاز عند القائل به إنْ دلّت عليه قرينة" انظر: مذكرة أصول الفقه : لمحمد الأمين الشنقيطي،دط، الدار السلفية للنشر والتوزيع، الجزائر ،دت، 175.

[50]فتح القدير : 1/ 163 .

[51]المصدر نفسه : 1/ 743 .

[52]نقلا عن كتاب الإمام الشوكاني مفسّرا : محمد حسين الغماري، ط:1، دار الشروق، جدة، 1401هـ، 112 .

[53]فتح القدير : 3/ 657.

[54]المصدر نفسه : 5/ 377.

[55]المصدر نفسه : 5/ 562.